

الفصل الأول

علم الأخلاق — ماهيته — موضوعه — مسأله —
الأعمال الارادية وغير الارادية — التبعة الأخلاقية

ماهية علم الأخلاق ومسأله — كلنا يحكم على بعض
الأعمال بأنها خير، وعلى بعضها بأنها شر، فنقول : العدل خير،
والظلم شر، وأداء الدين الى صاحبه خير، وإنكار المدين ما عليه
شر، وهذا الحكم متداول بين الناس رفيعهم ووضيعهم، عالمهم
وجاهلهم، على لسان الفيلسوف في بحثه عن أعمال الإنسان ،
وعلى السنة الصناع في صناعتهم ، بل والأطفال في ألعابهم ، فما معنى
الخير والشر ؟ وبأى مقياس أقيس العمل فأحكم عليه بأنه خير
أو شر ؟

كذلك نرى الناس يعملون أعمالا لغاية يطلبون تحقيقها ،
والناس يختلفون اختلافا كبيرا في هذه الغايات التي ينشدونها ،
فبعضهم يطلب المال ، وآخر يطلب الجاه ، وآخر يطلب العلم ،
وفريق يزهد في كل ذلك ويطلب رضا الله بالعمل الصالح ،

ويأمل النعيم المقيم في الدار الآخرة، ولكن كثير من هذه الغايات التي يطلبونها ليست هي الغاية الأخيرة، فلو سألت إنسانا لم يعمل هذا العمل؟ لقال: إنه يعمل طامعا للمال، ولو سألته لم يطلب المال لقال: إنه يطلبه لينبئ قصرا ويكون أسرة، ولو سألته في آماله وسألته لم يريد القصر والأسرة؟ لقال: إنه يرغب أن يكون في الحياة سعيدا - إذن - المال والقصر والأسرة ليست غايات أخيرة، إنما الغاية الأخيرة له أن يكون سعيدا - فهل للناس جميعا غاية أخيرة واحدة يطلبونها أو بعبارة أخرى ينبغي أن يطلبوها؟ وما هي؟

عن كل هذا يبحث علم الأخلاق .

فهو علم يوضح معنى الخير والشر، ويبين ما ينبغي أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضا، ويشرح الغاية التي ينبغي أن يقصدها الناس في أعمالهم، وينير السبيل لعمل ما ينبغي .

موضوعه — يؤخذ مما ذكرنا أن علم الأخلاق يبحث عن أعمال الناس فيحكم عليها بالخير أو الشر، ولكن ليست كل الأعمال صالحة لأن يُحكم عليها هذا الحكم، فكثير من الأعمال لا يصح أن يقال: إنها خير ولا شر، وليبان ذلك نقول:

تصدر من الانسان أعمال غير ارادية كالتنفس ونبض القلب ورمش العين عند الانتقال فجأة من ظلمة الى نور، فهذه الأعمال تسمى (أعمالا غير ارادية)، وهي ليست من موضوع علم الأخلاق، فلا نحكم عليها بخير ولا شر، ولا يقال : إن الانسان خير لأن قلبه ينبض نبضا حسنا، أو معدته تهضم هضمًا جيدا، كما لا يقال : إنه شرير لأن قلبه لا ينبض كما ينبغي ، ومعدته لا تهضم هضمًا حسنا ، لأنه لا دخل لارادة الانسان في ذلك، وكل إنسان يريد أن ينبض قلبه وتهضم معدته على أحسن وجه ولكن ارادته لا أثر لها في ذلك .

وتصدر من الإنسان أعمال بعد التفكير في نتائجها واردة عملها، كمن يرى أن بناء مستشفى في بلده ينفع قومه ويخفف مصائبهم فيتبرع بالمال لبنائه وإدارته ، وكن يُقدم على قتل عدوه فيفكر في وسائل ذلك ثم ينفذ ما عزم عليه ، فهذه الأعمال تسمى «أعمالا إرادية» وهي موضوع علم الأخلاق، فيحكم عليها بأنها خير أو شر، وعلى فاعلها بأنه خير أو شرير .

وهناك نوع من الأعمال بين الاثنين ، فله شبهة بالأعمال الارادية وله شبهة بالأعمال غير الارادية ، فهل هو من موضوع علم الأخلاق ؟ كما في الأمثلة الآتية :

(١) من الناس من يأتى أعمالا وهو نائم ، فلو أن أحدهم أشعل نارا بمنزله وهو في هذه الحالة ، أو أطفأ نارا كادت تحرق المنزل ، فهل هذا عمل إرادى- يحكم عليه بأنه خير في الحالة الأولى وشر في الثانية ؟

(٢) قد يصاب إنسان بداء النسيان فيترك عملا كان يجب عليه عمله في وقته ، أو يخلف موعدا وعده .

(٣) قد يستغرق الفكر عمل ، كمن يشتغل بحل مسألة هندسية ، أو يقرأ في رواية لذيذة ، فلهيه ذلك عن درس واجب أو عمل مفروض .

هذه الأعمال كلها — بالتأمل فيها — نرى أنها أعمال غير ارادية ، فليس النائم في المثال الأول قد تعمد إحراق المنزل وقدر نتائجه ، لذلك لا يُحكم على عمله هذا بأنه خير أو شر ، لأنه لا ارادة له ، ولا يُسال عنه ، وإنما يسأل عنه ويحاسب عليه اذا كان يعلم أنه مصاب بهذا المرض وأنه يأتى أعمالا خطيرة وهو نائم ، ثم لم يحط وقت صحوه وانتباهه لما قد يحصل عند نومه ، بأن يحول بين نفسه والنار وأدواتها ، فهو مسئول خلقيا عن عدم الاحتياط وقت الانتباه ، لأنه شئ ارادى ، كان في مكنته أن يحتاط له ثم

لم يفعل ، وكذلك الشأن في الأمثلة التي ذكرناها ونحوها ، فلو أنك نمت وتركت النار مشتعلة في موقد ثم طارت شرارة أحرقت المنزل لا يسمع لقولك : « إن هذه ليست خطيئتي ولست قادرا أن أمنع النار أن ترمى بالشرر وأنا نائم » اذ يقال لك : « إنك عالم أن ستنام ، وقد أردت النوم ، وعالم أن النار مشتعلة ، وكان في إمكانك أن تحتاط وقت انتباهك باطفائها ، وعالم أنك ستكون في حالة عدم شعور ، فكان ينبغي أن تستعد وقت شعورك لما قد يطرأ وقت عدم شعورك ، وذلك باطفاء النار ، فنحن إنما نحكم عليك بالخطأ والصواب بالنظر الى عدم الاحتياط ، وهو شيء ارادى » .

ومثل ذلك الإتيان بعمل مع الاعتذار بجهل النتائج التي تصدر عنه — وكن كان يعلم من نفسه أنه حاد الطبع غضوب ، لا يضبط نفسه عند سماع كلمة تؤلمه ، فيسب أو يضرب من غير شعور ، فلو أنه غشى الجمعيات التي هي مظنة لاثارة غضبه وأتى بما يستنكر كان مسئولا عن عمله ، — لما ذكرناه — وكذلك الأعمال التي اعتيدت حتى صار صاحبها يأتيها من غير ارادة ، فإنه يسأل عنها ، لأن الاعتياد نتيجة عمل ارادى متكرر ، فلا يعذر طالب بأنه إنما يدخن لأن التدخين أصبح عادة متمكنة منه ، لأنه — على فرض

تمكنه كما يدعى — إنما انغمس في هذه العادة بعد أن دخن جملة
مرات وهو حر مختار مرید حتى صارت عادة، وهكذا .

والخلاصة : أن موضوع علم الأخلاق هي الأعمال التي
صدرت من العامل عن عمد واختيار، يعلم صاحبها وقت عملها
ماذا يعمل، وكذلك الأعمال التي صدرت لا عن إرادة ولكن
كان يمكن تجنب وقوعها عند ما كان مریدا مختاراً، فهذان النوعان
يحكم عليهما بالخير أو الشر — وأما ما يصدر لا عن إرادة وشعور،
ولا يمكن تجنبه في حالة الاختيار، فليس من موضوع علم الأخلاق .

التَّبعَةُ الأخلاقية (المسؤولية الأخلاقية) — مما تقدم
نفهم أن التبعة لا تكون إلا إذا وجدت الإرادة ، فما لا دخل
لإرادة الإنسان فيه لا يُسأل عنه ، ولا يلام عليه ، ولا يمدح أو يذم
من أجله ، فلا يمدح الشخص لطوله ، ولا يذم لقصره ، من الناحية
الأخلاقية ، ولا يقال : انه خير لأنه جميل الوجه ولا شرير لأنه
قبيح ، لأن هذه الأشياء وأشباهها لا عمل لإرادة الإنسان فيها .
وليس يلام الإنسان على سوء صحته ، ولا يمدح على حسنها إلا بمقدار
ماله من أعمال ارادية في ذلك ، كسيره في حياته على نظام صحى
أو اهماله ذلك .

كذلك لا يُسأل الانسان عما لم يمنح من ملكات عقلية أو فنية، فالناس لم يخلقوا جميعا وعندهم استعداد بقدر واحد للرياضة أو للفنون الجميلة، فمن لم يخلق رياضيا لا يكون مسئولا عن ضعفه الرياضي، انما يكون مسئولا اذا كان عنده الاستعداد الكافي وكان ينقصه المرن والجد ثم لم يمرن ولم يجتد وهكذا .

والطفل الرضيع اذا بكى وأسهر أمه طول الليل لا يسأل عن عمله لأنه لا ارادة له ، والصيدلى اذا أخطأ فأعطى الممرضة دواء غير المكتوب فى تذكرة الطبيب فناولته الممرضة للمريض وهى جاهلة به فمات منه كان المسئول هو الصيدلى لا الممرضة، لأنها لا إرادة لها فى ذلك، والصيدلى هو المسئول لاهماله فى عمله .

فتمى وجدت الارادة وجدت المسئولية، وما لم توجد الارادة فلا مسئولية ، فالأعمال التى ليس فى طاقة الانسان التحرز عنها والتى غلب فيها على نفسه لا يسأل عنها ، كأعمال المجنون والمغمى عليه، وكذلك أعمال المكروه، فمن أمسك بيد آخر واضطره لارتكاب جريمة ولم يستطع المكروه بحال أن يقاومه لم يكن مسئولا ، انما المسئول من أكرهه على العمل .

وهنا كثيرا ما يعرض هذا السؤال وهو: هل ارادة الانسان حرة حتى يكون مسئولا عن عمله؟ هذه المسألة من المسائل المشككة

التي طال فيها الجدل قديما وحديثا ، فيذهب بعض الباحثين الى ان الانسان مُجبر ليس حرّ الارادة : ذلك لأن إرادة الانسان تتأثر بشيئين : الوراثة والبيئة ، فهو يرث من أبويه ميولا خيرة وميولا شريرة ، وكذلك تؤثر فيه البيئة التي حوله من بيت ومدرسة وأصدقاء وكتب ونحو ذلك ، فمن نشأ من أبوين مجرمين ، وورث منهما الميل الى الاجرام ، وشبّ بين مجرمين وسمع أحاديثهم كان مجرما لا محالة ، ولم يكن حرّ الارادة فيما يفعل ، وليس في استطاعته إلا أن يكون مجرما ، وإذا أردت إصلاحه فأصلح البيئة التي يعيش فيها ، وأنقله من بيئته السيئة الى بيئة خيرة ، ولكن في هذا الرأي غلو ، فإن الارادة — وإن كانت تتأثر بالوراثة والبيئة الى درجة كبيرة — فإنها لا تفقد حرّيتها ، وأوضح داييل على ذلك ما نشعر به في أنفسنا من أننا أحرار في الاختيار ، وأنها نستطيع أن نعمل الشيء أو لا نعمله ، فمن كذب شعر من نفسه بأنه كان يستطيع ألا يكذب ، ومن أجل هذا يندم على كذبه ، ولو كان كذبه محتما عليه ما ندم — ولولا أن ارادة الانسان حرة في اختيار الخير والشر لما كان هناك معنى للتعالم الأخلاقية ، ولما كان الأمر بفعل الخير والنهي عن الشرّ ضربا من العبث ، ولما كان هناك معنى للشواب والعقاب والمدح والذم .

وهناك نوعان من المسؤولية : مسئولية قانونية ، ومسئولية أخلاقية ، فالإنسان إذا خالف قانون البلاد كان مسئولاً أمام القضاء ، وعوقب من أجل مخالفته ، وإذا خالف أوامر الأخلاق كان مسئولاً أمام الله وأمام ضميره ، والمسئولية الأخلاقية أوسع دائرة من المسئولية القانونية : ذلك لأن القانون لا يأمر ولا ينهى إلا إذا استطاع أن يعاقب من يخالف أمره ونهيه بالعقوبات التي نص عليها ، أما الأخلاق فسلطانها أوسع ، لأن من يتولى لها المثوبة والعقوبة هو الله والضمير ، وكلاهما يشرف على الأعمال الظاهرة والباطنة — فالقانون لا يستطيع أن ينهى عن الكذب والحسد لأنه لا يستطيع أن «يسأل» من يرتكبهما ، ولو حاول أن يعاقب الكاذب أو الحاسد لارتكب من إضرار الناس بالوشاية والتجسس أكثر مما يصلح ، أما الأخلاق فتنتهى عن الكذب والحسد وتنتهى عن أكثر من ذلك . فتسأل الإنسان عن نياته التي في أعماق نفسه ولو لم يصدر عنها عمل ، وتكل مكافأته على نياته الحسنة ومعاقبته على نياته السيئة إلى الله وإلى ضميره .